لغة القرآن الكريم وتأثيرها في اللهجات الأمازيغية

في بلاد المغرب.

براهم سمير

جامعة المسيلة

مدخل :

يوجد على سطح الأرض ما بين 4000 و 5000 لغة مختلفة و قرابة 150 بلد . إن حسابا بسيطا يبين لنا بأنه من الوجهة النظرية هناك 30 لغة تقريبا لكل بلد ، و لئن كان الواقع ليس تماما على هذا النحو (بعض البلدان تتوفر على عدد قليل من اللغات و بلدان أخرى على عدد أكبر منها) ، فإن العالم مع ذلك يظل متعدد اللغات في كل الأمصار ، الجماعات اللغوية تتعايش و تتضاد باستمرار. و هذا التعدد اللغوي يجعل اللغات دائما في احتكاك.[1] و بما أن الناس بحاجة إلى الاتصال بعضهم ببعض ، لا بد أن تتلاقى لغاتهم و لهجاتهم مما يترتب عن ذلك من آثار لغوية تطرأ على مختلف المستويات ، معجمية كانت أو صوتية بل حتى تركيبية في بعض الأحيان.

و في السياق ذاته ، يؤكد الدكتور حاتم صالح الضامن أنه " أصبح من المسلم به عند اللغويين ، أن احتكاك اللغات ضرورة تاريخية و هذا الاحتكاك يؤدي إلى تداخلها إن قليلا و إن كثيرا و يكادون يقطعون بأن التطور الدائم للغة من اللغات و هي في معزل على كل احتكاك و تأثر خارجي يعد أمرا مثاليا ، لا يكاد يتحقق".[2]

1) اللهجات الأمازيغية :

إن لغات الأمازيغ وهي المعروفة باللغات البربرية تنقسم إلى : الترقية، القبائلية ، الشلحية ، الريفية، الأمازيغية . و من لغاتها الميّتة : الليبية ، النوميدية ، الجيتولية [3]. و هذه

اللغات هي على أساس من التقارب الجنسي في اللغات السامية – الحامية ، و تنقسم هذه الأخيرة إلى : العربية ، الأسرة المصرية ، الأسرة الكوشيتية ، الأسرة البربرية ، الأسرة التشادية – الحامية [4] .

تشمل المنطقة الناطقة بالأمازيغية في الوقت الراهن نحو عشرة من الدول الواقعة ضمن المجموعة التي تضم بلاد المغرب و الصحراء و بلاد الساحل. من أهم المناطق الناطقة بالأمازيغية بالجزائر: منطقتا القبائل و الأوراس ؛ و كذا الطوارق في الجنوب الكبير، فضلا عن بعض الجيوب اللغوية الصغيرة المتعددة وسط و غرب الجزائر على غرار شرشال(تيبازة) ، عسلة(النعامة) ، بني سنوس(تلمسان)، تيميمون(أدرار)...الخ.

2) احتكاك اللغة العربية باللهجات الأمازيغية :

كان المجال اللغوي البربري يمتد سابقا و بشكل متواصل من المحيط الأطلسي إلى مصر و من شمال بلاد المغرب إلى غاية أقاصي الصحراء حتى إفريقيا السوداء . و لم يتمكن الاحتلال الفينيقي و الغزو الروماني من تغيير الشخصية اللغوية للمنطقة على الرغم من استمرارهما لعدة قرون. على النقيض من ذلك تمكنت الفتوحات الإسلامية التي استفادت من وقت أطول و خاصة من وسيلة انتشار أكثر قوة ممثلة في الدين من التوسع ببطء لكن بخطى ثابتة على حساب الفضاء البربري حتى حوله إلى كتل و تجمعات تخترقها مناطق ناطقة بالعربية كانت محدودة في البداية ثم أصبحت كبيرة أكثر فأكثر إلى أن أصبحت اليوم تشكل الأغلبية.[5]

فمنذ أكثر من 13 قرنا و البربرية في اتصال دائم مع اللغة العربية ، و من الجلي أن هذا الاتصال هو اتصال من نوع خاص و هو بدون أدنى شك أكثر وثاقة من المبادلات التي حدثت في مراحل سابقة (خاصة مع البونيقية و اللاتينية) ، حيث يمكن اعتبارها اللغة الوافدة الوحيدة التي استطاعت أن تترسخ في بلاد المغرب" .[6]

فوجود لغتين – أيُ لغتين – في مكان واحد لا يتصور معها أن تظل أي منهما بمنأى عن الأخرى، تقول لها لا مساس و إنما لا بد مهما تكن نتيجة الصراع من وقوع احتكاك بين اللغتين و تأثير من كلا الجانبين على الآخر ، و إذا انتهى الصراع بموت إحدى اللغتين أو



إقصائها من الميدان إلى منطقة محدودة فلا يعني هذا أن اللغة المغلوبة قد ذهبت مع الرياح و طمست معالمها في مناطق نفوذ اللغة الغالبة، فهي لا بد و أن تترك قبل إخلائها الميدان معالم و تأثيرات قد تقل و قد تكثر بحسب كل حالة على حدة و في نفس الوقت فإن اللغة الغالبة لا تكتفي بإقصاء اللغة المغلوبة من طريقها و إنما لا بد لها في فترة الصراع من أن تترك آثارها و معالمها على اللغة المغلوبة. أما تأثير العربية على البربرية فتأثير ضخم متعدد الجوانب". [7]

أ- الفتوحات الإسلامية :

يتميز تاريخ المغرب الإسلامي بعدد من الظواهر التي تميزه عن غيره من تواريخ بلاد الإسلام ، أولها طول مدة الفتح ، فقد استغرق إتمام الفتح ، فتحا عاما شاملا ، نحو سبعين سنة ، كلها حروب عنيفة أبدى العرب و البربر خلالها من ضروب البسالة ما يجعل هذا الفتح في ذاته ملحمة شعبين: العربي المناضل المصرّ على إدخال الشعب البربري كله في الإسلام ، و البربر الذين أبوا الخضوع للفاتحين العرب ، و طال الصراع بين العرب و البربر حتى أخذ العرب و الإسلام معا بنواصي البربر و أدخلوهم في الدين . [8]

فما إن يطّلع المرء على ردود الفعل التي كانت تصدر قبل الإسلام عن "البربر" كلما هوجموا في عقر دارهم، يكون قد أدرك الأسباب التي من أجلها لم تفتح "إفريقية الشمالية "كاملة إلا بعد لأي و عناء. كان من الطبيعي أن ينظر الأمازيغيون إلى الفاتحين الأول نظرة المغزو للغازي.فلا غرابة و الحالة تلك أن ينهض الأهالي لرد ما يرونه هجوما استعماريا من النوع الذي كان لهم به سابق عهد.[9]

و الظاهرة الثانية هي أن طول الصراع علّم كلا من الجانبين أن يحترم الآخر ، ثم إن طول أمد الحرب كان كفيلا بأن يعرف البربر فضائل الإسلام ، فأخذوا يسلمون رويدا رويدا على طول مراحل الفتح ، و قرب النهاية كانت أعداد كبيرة جدا من البربر قد أسلمت و أخذت مكانها في جيوش الفتح ، و اشترك الاثنان معا في فتح الأندلس ، و هذه الحقيقة تقودنا إلى واحدة من أظهر خصائص تاريخ المغرب الإسلامي ، و هي أن فتحه و إسلامه كانا كاملين ، فلم تبق في بلاده بعد تمام الفتح أي أقلية غير إسلامية . [10]

و بدخول المسلمون إلى شمال أفريقيا لفتح بلدانها ونشر الإسلام تعايشت في حضن الدين الجديد اللغتان: العربية و الأمازيغية ، فأقبل الكثير من الأمازيغ على اللغة العربية لتعلمها والنهل من معارفها وعلومها وآدابها كما هو حال ابن خلدون صاحب كتاب:"المقدمة في التاريخ"، و" كتاب العبر"، وهناك من كان يكتب مؤلفاته العربية بالأمازيغية كما هو حال ابن تومرت صاحب كتاب:" أعزّ ما يطلب".[11]

لا جدال في أن الفتوحات العربية في القرن السابع أسلمت بلاد المغرب بالكامل لكن ذلك لا يعني البتة أنها عربتها ، فالتعريب الكامل لم يتم في هذه المرحلة نظرا لعدة عوامل نورد منها خاصة العامل الديمغرافي، حيث أن قلة قليلة فقط من الفاتحين استقروا مع عائلاتهم في بلاد المغرب مع بدايات الفتح في مقابل أغلبية ساحقة من البربر ، و حتى هذا الاستقرار لم يتعد بعض المدن دون غيرها من البوادي و الصحاري.

ب- الغزوة الهلالية :

كان يجب انتظار زحف قبائل بنو هلال إلى بلاد المغرب حتى يفتح فصل جديد في تاريخ بلاد المغرب و تتسارع فيه التحولات في شتى الميادين ، السياسية و الاقتصادية و الاجتماعية و هنا شهدت عملية التعريب انطلاقتها الفعلية لتشمل طول البلاد و عرضها مستفيدة من عنصري العدد الكبير لأفراد هذه القبائل فضلا على إسلام البربر الذي مهد لتقبلهم لغة القرآن الكريم بصدر رحب .

و تعود حيثيات هذه الغزوة إلى عهد الخليفة المستنصر الفاطمي ، حيث وقعت الحروب بين قبائل بنو هلال بعضها بعض... و أصبحوا مشكلة كبيرة للحكم الفاطمي في مصر. في ذلك الحين كان المعز بن باديس (في بلاد المغرب) قد أعلن استقلاله عن الفاطميين و عاد إلى المذهب السني و دخل في طاعة الخليفة العباسي ، و كانت الدولة الفاطمية عاجزة عن اتخاذ أي إجراء ضده .و هنا خطرت ببال الوزير الفاطمي أبي محمد الحسن ابن علي اليازوري فكرة إقطاع بني هلال و بني سليم بلاد افريقية و المغرب و نقلهم إليها ، و كان رأيه أنه إذا تمكن الهلاليون من القضاء على دولة بني زيري ، كان ذلك خيرا للدولة الفاطمية ، فإن استقلال بني زيري و عودتهم إلى مذهب السنة كان يؤرق بال الخليفة الفاطمي و رجاله ، فإذا

حدث العكس و قضى بنو زيري على بني هلال كان هذا خلاصا من هؤلاء دون أن تخسر الدولة شيئا ".[12]

3) العوامل المساهمة في تعريب المغرب :

قد حكم الصراع بين اللغتين العربية و الأمازيغية مجموعة من العوامل التي تتحكم في صراع اللغات و التي يمكن اعتبارها قوانين عامة يسري مفعولها على أي لغتين يحدث بينهما احتكاك نتيجة وجودهما في مكان واحد و هذه العوامل هي :

أ- العامل السياسي.
ب- العامل الاقتصادي.
ج- العامل الديني.
د- العامل الديمغرافي.
هـ- عامل الهيبة أو التفوق الذاتي للغة.
و- درجة قرابة اللغتين المتصارعتين.
ز- المكانة اللغوية للأمازيغية عند مستعمليها قبل الفتح الإسلامي.

و قد لعبت كل هذه العوامل أو لنقل جلها دورا هاما في تعزيز مكانة اللغة العربية، سنحاول تسليط الضوء على بعضها ، خاصة تلك التي نرى أن دورها كان حاسما في عملية تعريب المغرب التي تختلف في عن عملية تعريب البلدان الأخرى التي فتحها المسلمون على غرار بلاد فارس أو مصر في كثير من النقاط نظرا لخصوصيات كل منطقة و مميزات سكانها و لغاتها المحلية.

و في السياق نفسه، سنتجنب التطرق للعوامل السياسية و الاقتصادية كونها تتشابه في كل البلاد المفتوحة من قبل العرب، مفضلين التركيز على تلك العوامل التي نرى أنها لعبت دورا أكبر في بلاد المغرب العربي و هي كالتالي:

ج- العامل الديني:

يعد عامل الإسلام من الناحية اللغوية ذا أهمية قصوى في أي بلد من البلاد التي فتحها المسلمون و قد كان من الواضح ارتباط تقدم اللغة العربية و انتشارها بتقدم الإسلام و انتشاره في كل الأقطار المفتوحة على السواء و قد لعب هذا العامل في ليبيا (و في سائر بلاد المغرب) دورا أقوى مما لعبه في بعض البلدان العربية الأخرى كمصر مثلا لعدم ارتباط أي من الأديان التي كانت في ليبيا (و في بلاد المغرب عموما) إذ ذاك بلغة معينة يحميها و يعتبرها لغة طقوسه و شعائره.[13]

و بقيت اللغة الأمازيغية بعد إسلام البربر الذي حسن منذ القرن الأول ، و عدل هؤلاء في الغالب عن الخط اللوبي القديم و كتبت بالحرف العربي ، كتبت بـه تصانيفها الدينية الإسلامية ، و شعرهـا و حكاياتها و نوادرها و درس المسلمون هذه اللغة العجيبة و صنفوا كتبا في المقارنة بينـها و بين العربية و العبرانية ، و ألفوا معاجم لها و للعربية معا ، و اعتنى أصحاب المعاجم النباتية من الغافقي إلى ابن الجزار إلى ابن بيطار بإيراد التسميات البربرية للنباتات التي يصفونها و بقيت هذه اللغة لغة البلاط في الأسر المالكة البربرية من صنهاجيين و حفصيين و حماديين و زناتيين و مرابطين و موحدين.[14]

د- العامل الديمغرافي:

و لعل العامل التي يلي الإسلام مباشرة من حيث الأهمية في قلب موازين القوي لصالح اللغة العربية تمثل في العامل الديمغرافي حيث كان يجب انتظار دخول العرب الهلالية إلى بلاد المغرب ، حتى يشهد هذا الأخير تغيرا دراماتيكيا من الناحية الديمغرافية . إذ ساهم الهلاليون بشكل كبيـر في تغيير المعطى السكاني و بالتالي اللغوي لبلاد المغرب ، و من ثم تحقق أحد الشروط التي حددها الدكتور رمضان عبد التواب لتفوق لغة على لغة أخرى ألا و هي وجود " جالية كبيرة العدد و النفوذ، تقيم بصفة دائمة في بلاد الشعوب التي غلبت لغتها، و تمتزج بأفراد هذا الشعب، و لا يعيش إطلاقا في عزلة عنه".[15]

و لنؤكد أهمية هـذا العامل الديمغرافي ، نعقد مقارنـة بسيطة بين تعريـب بـلاد المغرب من جهة و تعريب بلاد فارس من جهة أخرى ، حيث أن الفرس و إلى يومنا هذا يحافظون على استعمال اللغة الفارسية رغم كتابتهم لها بالخط العربي اللهم إلا إذا استثنينا إقليم الأهواز أو ما يعرف بـ" عربستان' و رغم تأثر لغتهم باللغة العربية لكنه لم يخرج البتة من إطار احتكاك اللغات و لم تهدد لغتهم قط بالاندثار و ذلك مرده التفوق الديمغرافي للعنصر الفارسي على العنصر العربي و نفس الشيء ينطبق على الأتراك. في حين أن دخول العنصر الهلالي إلى المغرب العربي تسبب في الخروج عن الإطار السالف الذكر بل و بلغت قوته لدرجة بات يهدد وجود اللغة الأمازيغية .

هـ- عامل الهيبة أو التفوق الذاتي للغة:

إن " تفوق أي لغة و تمتعها بالهيبة يرجع إلى قيمتها الذاتية ، فاللغة العربية في ذلك الوقت هي من ناحية لغة الحكام و من ناحية أخرى لغة الدين و القرآن و النبي و هي بالإضافة إلى هذا و ذاك لغة حضارة عظيمة و ثقافة تفوق حتما البربرية إلى حد قد لا يسمح حتى بالمقارنة.[16] على حد تعبير الدكتور أحمد مختار عمر .

كما لا يجب أن ننسى أن " اللغة العربية كانت ذات تاريخ و أدب و ثقافة من قبل ظهور الإسلام ثم انتشرت في كثير من أنحاء العالم بعد مجيء الإسلام و تمثلت ثقافات و حضارات كثيرة مما أعطاها ميزة ضخمة و قيمة كبيرة و بمرور الزمن ازداد هذا العامل قوة فما أن جاءت العربية إلى معركتها الحاسمة مع البربرية حتى كانت ثقافة عالية . فغالبا ما تكون اللغة الغالبة، لغة شعب متحضر، أرقى من الشعب المغلوب، في حضارته و ثقافته، و أقوى منه سلطانا و أوسع نفوذا.[17]

في حين أن " متكلمي البربرية لم يكونوا قد وصلوا إلى درجة من الحضارة تمكنهم من تثبيت لغتهم في شكل أدب ، فعلى الرغم مما عثر عليه من نقوش في الصحراء تثبت كتابة اللغة البربرية لم يؤثر عن البربر أي كتابات أو مؤلفات ذات قيمة حتى عدة قرون من الظهور".[18] و هنا تجدر الإشارة إلى أن كل الأدباء الأمازيغ في بلاد المغرب بدون استثناء إنما جنحوا للكتابة باللغات الرومانية و البونيقية و العربية.



و- درجة قرابة اللغتين المتصارعتين:

يمكننا أيضا ذكر ، على سبيل الفرضية على الأقل ، الدور المساعد الذي لعبته القرابة اللغوية- البعيدة و لكن غير قابلة للنقاش – الموجودة بين الأمازيغية و العربية . فالتشابهات و الموازاة البنيوية الواضحة بين اللغتين تكون قد سهلت من عملية التعريب . و من وجهة نظر لسانية محضة ، كان من السهل على الأمازيغي الانتقال من لغته إلى العربية و لا الانتقال من الأمازيغية إلى اللاتينية . و نعرف أيضا بصفة عامة بأن اللاتينية لم تتمكن من أن تترسخ بشكل نهائي سوى على بقايا هندو-أوروبية ، بينما العربية من جهتها لم تترسخ سوى في المناطق السامية أو السامية – الحامية . الأمر الذي يعطي نوعا من الصلابة لهذه الفرضية حسب الدكتور سالم شاكر.[19]

و مع بداية القرن العشرين ظهرت العديد من الدراسات استندت إلى مقاربات علمية اعتمدت على تحليل دقيق للسان الأمازيغي ولمقارنات واسعة النطاق ، و رجحت جلها انتماء اللغة الأمازيغية إلى شعبة اللغات الحامية السامية. انطلاقا من التشابه الكبير بينها، خاصة في ما يخص المستوى الصرفي والتركيبي، فضلا على اشتراكها في مجموعة من الجذور.

هذه التشابهات ليست مجرد تماثل معجمي ، حيث أنها تمس بنية اللغات ذاتها ، على غرار النظام الفعلي ، التصريف ، هيئة ثلاثية الجذور ، على الرغم من أن اللغة البربرية تتضمن العديد من الجذور الثنائية ، لكن هذه الهيئة مردها " تعرية " صوتية قوية بصفة خاصة في اللغة البربرية الشيء الذي يجمع عليه كل المختصين. و على أية حال ، فإن القرابة الملاحظة في داخل المجموعة الحامية – السامية بين اللغة البربرية ، المصرية و اللغات السامية تأتي لتؤكد المعطيات الأنثربولوجية التي تشهد هي بدورها لصالح أصل شرقي بعيد للبربر.[20]

و هذا ما ذهب إليه الباحث كمال نايث زراد الذي يحصر أوجه الشبه في ما يلي [21] :

1- وجود اللواحق ناجمة عن تصريف الأفعال .

2- ضمائر متصلة و كذا صفات الملكية .



3- ضمائر منفصلة(مستقلة).

4- الاشتقاق بواسطة سوابق .

5- تركيبة الفعل.

و يأتي كل هذا تأكيدا لما ذهب إليه رمضان عبد التواب في كتابه المدخل إلى علم اللغة عندما يتحدث عن شروط هيمنة لغة ما على لغة أخرى و التي يورد من بينها أن " تكون اللغتان: الغالبة و المغلوبة، من شعبة لغوية واحدة أو من شعبتين متجاورتين".[22]

و في سياق متصل ، بقاء البونيقية و هي لغة سامية قريبة من العربية ، يكون قد ساعد على ترسيخ اللغة العربية في تونس و الشمال القسنطيني على الأقل . و تجدر الإشارة إلى أنه على مستوى جزء من بلاد المغرب ، لم تأخذ العربية مكان الأمازيغية ، بل أخذت مكان البونيقية. و هذه الأطروحة قديمة و مطروحة بكل وضوح عند ستيفان قزال (Stéphane Gsell)، و دافـع عنها إميل فيليكس غوتييه(Emile Félix Gautier) و أثارت ، خلال الخمسينيات ، جدالا واسعا – الذي لا يزال إلى يومنا هذا، و لكن بصفة غير علنية- بين "البونيقاويين" (Punicistes) و "المستمزغين"(Berbériste). و قد قدّمـت حجج جادة لصالـح الأطروحتين ، و استعملت المصادر الكلاسيكية، خاصة شهادة القديس أوغسطين ، من طرف المدرستين.[23]

ز- المكانة اللغوية للأمازيغية عند مستعمليها قبل الفتح الإسلامي:

عندما عرفت بلاد الشمال الإفريقي اللغة العربية مع الفتوحات الإسلامية التي بدأت في منتصف القرن الأول الهجري على يد عقبة بن نافع الفهري ثم موسى بن نصير في الربع الأخير من القرن الأول ، لم تكن اللغة البربرية السائدة آنذاك في شمال إفريقيا قادرة على الوقوف أمام لغة العرب الفاتحين ، فقد كانت لغة شفوية أكثر منها كتابية و لم تتخط في مستوى الكتابة المراحل الأولى من نشأتها .[24]

فعند فتح العرب بلاد المغرب سنة 27 هـ وجـدوا اللغة البربرية منتشرة في الصحاري و الجبال و بعض الجزر كما هو الحال بالنسبة لجزيرة جربة ، و بشكل ضعيف أو شبه منعدم في المدن و القرى حيث كانت تزاحمها هناك اللغة البونيقية التي تعتبر لغة فينيقية متأثرة باللهجات البربرية خاصة في كل من تونس و منطقة قسنطينة حاليا فضلا على حضور ضعيف للغة اللاتينية.

هذا و قد ساهمت عوامل أخرى في إنجاح حركة التعريب في بلاد شمال إفريقيا و أهمها الهجرة الأندلسية و انتشار الدعوة الموحّدية انطلاقا من جبال الأطلس و تعدد المدارس و الزوايا و الطرق الصوفية في أنحاء البلاد.[25] فضلا على الفترة الزمنية التي ساد فيها الحكم العربي و التي كانت طويلة و مستمرة لدرجة مكنت للإسلام أن يرسخ و للغة العربية أن تسود. حيث أن من عوامل شروط سيادة لغة قوم في أي بلاد – حسب الدكتور رمضان عبد التواب– أن تبقى غلبة الغالب زمانا كافيا، مع استمرار قوته، لتتمكن اللغة الغالبة من بسط نفوذها، و يتم لها نصر حقيقي.[26]

4) مستويات تأثير اللغة العربية في اللهجات الأمازيغية :

و لا بد للإشارة هنا أن اللهجات الأمازيغية عرفت ، حسب البلدان و المناطق ، تغيرات مهمة في وضعها العام نتيجة لمنافسة اللغة العربية لها منذ قرون عديدة و إدراجها في إطارات جيو–سياسية جد مختلفة.[27] توجد الاختلافات اللهجية غالبا في مجالي المعجم و الصوتيات، و تقل إلى حد كبير في مجال الخصائص الصرفية و النحوية. [28] و نفس الشيء يقال عن تأثير اللغة العربية في اللهجات الأمازيعية .

أ- المستوى المعجمي :

لا شك أن أي لغة لا يمكن أن تكتفي بما ورثته من كلمات و ألفاظ. بل تفرض عليها الحاجات المستجدة و التحولات و التطورات المستمرة اللجوء إما إلى الإبداع و التوليد المعجمي أو الاقتراض من اللغات الأخرى مع تكييف ما تم اقتراضه مع المعطيات الصواتية الخاصة بها.[29]

كانت اللغة الأمازيغية و على مدى آلاف السنين على اتصال دائم مع لغات ناقلة أخرى على غرار البونيقية ، اللاتينية ، العربية ، الفرنسية و الإسبانية. من بين كل هذه اللغات، تعتبر اللغة العربية أكبر من أثر فيها خاصة في المستوى المعجمي.[30] فالأمازيغية في تفاعلها مع اللغة العربية ، طيلة خمسة عشر قرنا قد امتصت عددا لا يحصى من الكلمات.

فاستنادا إلى دراسة تضمنها كتاب سالم شاكر نصوص في اللسانيات البربرية ، تضمنت قائمة تقديرية شملت 200 وحدة معجمية بسيطة من بينها 110 اسم ، 80 فعلا ، 10 أعداد ، تبين أن نسب الاقتراض من اللغة العربية هي كالتالي :

القبائلية = 38 بالمائة الشلحية = 25 بالمائة التارقية = 5 بالمائة

لم يقتصر الاقتراض الكثيف للألفاظ العربية من قبل كل اللهجات الأمازيغية في شمال إفريقيا بدون استثناء، على المفاهيم الجديدة على غرار المفاهيم الدينية للإسلام ، لكن تعداه ليشمل مجالات أخرى . ذكر منها سالم شاكر[31]:

- ❖الحياة الروحية و الدينية (حيث المفردات مقترضة بشكل مكثف من قبل اللهجات الثلاث).
- ❖النشاطات الاقتصادية (المتعلقة بالتبادلات التجارية) ، الشيء الذي يفسر التعريب القديم للأرقام في اللهجة القبائلية و في أغلبية اللهجات " المتوسطية ".
- ❖النشاطات الفكرية.
- ❖المصطلحات الشاملة (المصطلحات التي يشمل معناها عدة كلمات).

يتساءل هنري باسي " هل اللغة البربرية هي لغة غير متبلورة ، محكوم عليها بالخضوع لكل التأثيرات الأجنبية بدون أن تحرك ساكنا ؟" لكنه يجيب بالنفي و يقول: " هنا تكمن أكثر سماتها إثارة للاهتمام؛ حيث و رغم أنها تمتص كلمات أجنبية بسخاء، مانحة لها الأفضلية لدرجة أنها تهمل ألفاظها الأكثر تداولا من أجل هذه الكلمات، تتبناها كألفاظها الخاصة من خلال إلباسها حلة بربرية." [32]

و يبدو هنـا أن اللهجات الأمازيغيـة " كيّفت " و "بربرت" أو "مزغت" بسهولـة عددا من المفردات و الأصوات الأجنبية ، إذ نجد فيها كلمات لاتينيـة على غرار الروضا (Rota) و هي العجلة و الريبا (Ripa) و هو المنحدر و أورثو (Hortus) و هو البستان (35 % من القاموس القبائلي عبارة عن كلمات عربية) إلى جانب كلمات فرنسية و اسبانية ...الخ .[33]

و هكذا يؤكد محمد علي دبوز في كتابه تاريخ المغـرب العربي أن اللغة العربية كانت لانتشارها ، و اصطباغ الألسن في الدولة الرستمية بها . قد فاضت على اللغة البربرية فمازجتها . و دخل فيها كثير من الألفاظ العربية . فترى لغة أهل المدن سيما العلماء إذا تكلموا بالبربرية ثلث ألفاظها عربية قد تبربرت.[34]

لعل ذلك مردّه أن اللغة البربرية " سلسة مرنة ، تقبل كل الألفاظ الدخيلة فتبربرها فتصبح جزءا منها ، فاللغة البربرية فيها كل العناصر التي تتركب منها العربية ففيها الاسم و الفعل و الحرف و فيها أساليب العربية من نظم و نثر و من حقيقة و مجاز.[35]

و يورد عالم اللسانيات ميشال كيتوت(Michel Quitout) أمثلة عن الأسماء المذكرة المقترضة عن العربية و التي "مزّغت" بحيث يظهر عليها أحد حروف البدء [36]:

العربية	الأمازيغية
اللجام	أَلْجَامْ
غدار	أغدار
جزار	أَجْزَارْ

أما الأسماء التي حافظت على شكلها العربـي، لكنها في البربرية يصاحبها حـرف " لـ " قمري أو شمسي حسب كل حالة:

أمثلة:

العربية	**الأمازيغية**
اللوز	ألوزْ
البطيخ	أَلْبَطيخْ
السوق	أسوقْ

استرعت قضية اقتراض اللهجات الأمازيغية لمفردات عربية انتباه العاملين على تهيئة اللغة الأمازيغية ، و منهم من دعا صراحة إلى "تطهيرها" من كل ما يمت بصلة للغة العربية دون غيرها من اللغات ، باعتبارها تشكّل خطرا على مستقبلها ، متجاهلين في ذلك القوانين الطبيعية لتطور اللغات.

يؤكد السيد عبد النور عبد السلام في معجمه للغة الأمازيغية أن " اللسانيين ينبهوننا بوجود معايير مسموح بها في مجال الاقتراض حيث أنه عندما تتجاوز نسبة الألفاظ المقترضة 10 بالمائة يمكن التحدث على الأقل عن لغتين مختلفتين داخل لغة واحدة " .[37]

لعل السيد عبد النور يتجاهل عن قصد ما ورد على لسان محند آكلي حدادو الذي يعد بحق أحد أهم الباحثين في مجال الدراسات اللغوية الأمازيغية عندما أكّد " عدم وجود ثقافة استطاعت أن تتطور بمعزل عن الثقافات الأخرى، فالاقتراض اللساني ظاهرة عالمية. إذ و من خلال تبادل التقنيات و الخبرات بين الشعوب ينتج عن ذلك تبادل للكلمات... و قد اقترضت اللغة العربية آلاف المفردات من السريانية و الآرامية و العبرية و الفارسية و التركية و في العصر الحديث من اللغات الأوروبية خاصة الفرنسية و الإنجليزية...و يشار أن نسبة الكلمات المقترضة من طرف اللغة الإنجليزية بـ25 بالمائة على الأقل ... أما اللغة الإسبانية تضم أربعة آلاف مفردة أصلها عربي فضلا على آلاف المفردات المقترضة عبر مختلف الحقب الزمنية من اللغات الفرنسية ، الإيطالية و الإنجليزية[38]

كما أن جميع اللغات اقترضت من اللغات المجاورة لها ، أحيانا بشكل مكثف (مثل الإنجليزية التي اقترضت من الفرنسية جزءا كبيرا من مفرداتها) و كان لهذا الاقتراض من الضخامة ما جعلنا نشاهد اليوم ردود أفعال قومية لغوية. و هكذا تنامى في مقاطعة كيبك (Québec) و بدرجة أقل في فرنسا تيار رسمي لمناهضة الاقتراضات.[39]

فلا يجب اعتبار الاقتراض يشكل الاقتراض تهديدا حقيقيا للغة المستقبلة إلا في حالة عدم اندماجها فيها و تشكيلها أجساما غريبة بداخلها ، و ذلك بمحافظتها على أشكالها و علاماتها النحوية الأصلية.[40] على خلاف أولئك المنادين إلى " تطهير" اللهجات الأمازيغية من المفردات الأجنبية ، مستهدفين اللغة العربية في المقام الأول.

ب – المستوى الفونولوجي:

يتفق كل الباحثين في ميدان اللهجات البربرية على أن الفتوحات الإسلامية ومنذ القرن الحادي عشر قد ساهمت أيما مساهمة في إدراج عدد معتبر من الفونيمات العربية في كل اللهجات البربرية الشمالية بواسطة الاستعارات المعجمية.

و هكذا " دخل عدد معين من الفونيمات العربية إلى كل اللهجات البربرية الشمالية و اندمجت فيها عن طريق الاستعارات المعجمية. من المحتمل أن تكون بعض الفونيمات العربية غير الممثلة في اللهجات البربرية قد خضعت خلال القرون الأولى التي تلت الفتوحات العربية للتغيير و التكييف لتتلاءم مع النظام الصوتي – الفونولوجي للأمازيغية ، إذ أن الأصوات الحلقية [ح] ، [ع] و الحنجرية [هـ] والصوامت العربية المفخّمة مثل [ص]...الخ قد حـوّرت بشكل يسمـح لها بالاندمـاج في النظام الصوتـي الأمازيغي، و بالإمكان ملاحظة هده الظاهرة بشكل واضح في بعض الاستعارات القديمة من العربية إلى الأمازيغية مثل: " **صام** " في العربية تحولت إلى "يوزام" ، "صلى" في العربية تحولت إلى "زّال" ، "الشهادة" إلى "شّادة ".[41]

فانجرّ عن الاتصال مع اللغة العربية صوتمة بعض الأصوات التي لم تكن في مرحلة سابقة تعدو أن تكون متغيرات سياقية أو جهوية ، و قد كان هذا هو حال الأصوات المهموسة مثل[ط]

،[ص] ، [خ] ، [ق] ، التي لم تكن في الأصل سوى تجسيدات سياقية أو جهوية مهموسة للفونيمات [ض] ،[ز] المفخم ، و [ر] ، لكن استعارة وحدات جذرية عربية تحتوي على هذه الأصوات المهموس قد أدخلت للبربرية بعض التواردات غير المكيفة مما أعطاها وضعا فونولوجيا خاصا بها.[42]

3) المستوى الصرفي –التركيبي:

إن التأثيرات في هذا المجالات غير ذات أهمية ، و هي على أية حال أقل عمقا ، حيث تظهر بالخصوص في نماذج الروابط النحوية إلى غرار أدوات الربط المختلفة. ففي كل اللهجات الشمالية، أغلبية روابط التبعية الخاصة بالجمل تم اقتراضها من اللغة العربية، في حين أن حروف الجر قاومت بشكل أفضل. على الأرجح لأن تكوين هذه الأخيرة قديم جدا (فضلا على كون أغلبيتها مشتركة لكامل المجال الأمازيغي)، في حين أن نظام روابط التبعية الخاصة بالجمل و روابط الجمل مكتسبة حديثا، بالنظر إلى أهمية الإرداف في القول البربري.[43]

أما في ما يخص العلامات الإلزامية للاسم :"كان للاقتراضات المعجمية التي كانت في أغلبها كثيفة أثر محسوس على نظام العلامات الاسمية، حيث أن أغلب الأسماء المقترضة من اللغة العربية لم تعد تُمزّغْ ، حيث حافظت على مورفولوجيتها الأصلية على غرار: أداة التعريف العربية المسكوكة (figé) ، الجمع بشكله العربي ، اختفاء العلامات البربرية الخاصة بالجنس (بالتأنيث و التذكير) فضلا عن الحال" .[44]

و نورد على ذلك بعض الأمثلة من كتاب "Grammaire berbère" لمؤلفه ميشال كيتوت(Michel Quitout) [45] :

جمع الأسماء المذكرة المقترضة من العربية ثلاث أنواع:

أ- جمع أمازيغي لمفردات ممزّغة ، مثل :



أَجزَارْ	إجزّارَنْ	جزار (جزارين)
أَكْتاتْب	إكتاتبين	كاتب (كتاب)

ب- جمع أمازيغي لمفردات حافظت على شكلها العربي كما يدل عليه الأداة "لـ" التي هي في الأصل أداة التعريف في العربية "الـ" ، مثل:

لِمجْمرْ	إيمجمرنْ	موقد جمر
لَوْكيلْ	إيوْكيلنْ	المحامي

ج – جمع حافظ على شكله العربي لمفردات حافظت هي الأخرى على شكلها العربي:

لْكتابْ	لْكتوبْ	كتاب
سْوُقْ	لسْواق	السوق

أما في ما يخص الإنتاجية الاشتقاقية و النظام المعجمي يقول سالم شاكر أن " اللغة البربرية ، مثلها مثل كل اللغات السامية الحامية ، هي لغات تشتق انطلاقا من الجذر و الوزن ، حيث أن أي جذر فعلي قابل مبدئيا توليد عدة أفعال مشتقة و أي صيغة فعلية سواء كانت بسيطة أو مشتقة تزودنا بدورها بالعديد من الأسماء المشتقة (اسم فعل ، اسم فاعل ، اسم آلة...)... و كلما كان لجوء لهجة ما إلى الاقتراض أكبر كانت قدرتها على استغلال إمكاناتها الداخلية في التكوين المعجمي أقل." [46]



الهوامش:

1.لويس جان كالفي ،علم الاجتماع اللغوي ، ترجمة محمد يحياتن ، الجزائر : 2006 ، دار القصبة للنشر ، ص 27 .

2.حاتم صالح الضامن، علم اللغة، بغداد: 1989، بيت الحكمة، كلية الآداب، جامعة بغداد، ص 118.

3.عماد حاتم ، في فقه اللغة و تاريخ الكتابة . ط 1. طرابلس- ليبيا..: 1982، منشورات المنشأة العامة للنشر و التوزيع و الإعلان، ص 19.

4.صالح بلعيد ، في المسألة الأمازيغية.ط 2. الجزائر : 1999، دار هومة ، ص 33.

5.Mohand Akli Haddadou, Défense et illustration de la langue berbère, suivi de : Apport des berbères à la civilisation universelle, Alger : 2002, Edition INAS. P. 10.

6.Salem Chaker, Manuel de linguistique berbère– ll Syntaxe et diachronie, Alger : 1996, ENAG Editions. P.117 .

7.أحمد مختار عمر، النشاط الثقافي في ليبيا من الفتح الإسلامي حتى بداية العهد التركي، طرابلس: 1971، منشورات الجامعة الليبية ، كلية التربية ، ص 91.

8.حسين مؤنس ، أطلس تاريخ الإسلام. ط 1. القاهرة: 1987 ، الزهراء للإعلام العربية ، ص 178 .

9.ينظر : محمد شفيق ، ثلاثة و ثلاثين قرن من تاريخ الأمازيغيين – ص45

http://www.tawalt.com/wp-content/books/33_shafeeq_a.pdf ،منشور بتاريخ: 2012/05/13.

10.حسين مؤنس ، أطلس تاريخ الإسلام ، ص 178 .

11.ينظر: جميل حمداوي، الأمازيغية باعتبارها اللغة الأم،

http://pulpit.alwatanvoice.com/articles/2008/02/25/124123.html

12.حسين مؤنس، معالم تاريخ المغرب و الأندلس، القاهرة: 2004 ، دار الرشاد، ، ص167 .

13.أحمد مختار عمر ، النشاط الثقافي في ليبيا من الفتح الإسلامي حتى بداية العهد التركي ، ص ص 63-64.

14.عثمان الكعاك ، البربر ، منشورات تاوالت ، أعده للنشر تامغناست ص 79 .



http://www.tawalt.com/wp-content/books/al-berber/al_berber_2.pdf ، منشور بتاريخ: 2012/09/25.

15.أحمد مختار عمر، النشاط الثقافي في ليبيا من الفتح الإسلامي حتى بداية العهد التركي، ص 177.

16.المرجع نفسه ، ص 66.

17.رمضان عبد التواب ، المدخل إلى علم اللغة و مناهج البحث اللغوي .ط 3. القاهرة : 1997، مكتبة الخانجي للطباعة و النشر و التوزيع ، ص 177 .

18.أحمد مختار عمر ، النشاط الثقافي في ليبيا من الفتح الإسلامي حتى بداية العهد التركي ، ص 67.

19.سالم شاكر ، الأمازيغ و قضيتهم في بلاد المغرب المعاصر ، ترجمة : حبيب الله منصوري ، الجزائر : 2003 ، دار القصبة للنشر ، ص 18.

20.Gabriel Camps, Les berbères, Mémoire et identité, Paris : 2007, collection Babel- Acte Sud.PP. 69-70.

21.Kamal Nait -ZERRAD, Grammaire du berbère contemporain (kabyle) l-morphologie, Alger : 1995, ENAG Editions. P.19.

22.رمضان عبد التواب ، المدخل إلى علم اللغة و مناهج البحث اللغوي ، ص 177 .

23.سالم شاكر ، الأمازيغ و قضيتهم في بلاد المغرب المعاصر ، ص 17 .

24.نازلي معوض أحمد ، التعريب و القومية العربية في المغرب العربي ، ص 20.

25.المرجع نفسه ، ص 22.

26.رمضان عبد التواب ، المدخل إلى علم اللغة و مناهج البحث اللغوي ، ص 177 .

27.سالم شاكر ، الأمازيغ و قضيتهم في بلاد المغرب المعاصر ، ص 19 .

28.ميلكا إفيتش ، اتجاهات البحث اللساني ، ترجمة: سعد عبد العزيز مصلوح- وفاء كامل فايد .ط 2. القاهرة: 2000، المجلس الأعلى للثقافة، طبع بالهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، ص 118.

29.محمد أوسوس ، أماوال نئمودن ، معجم حيواني (فرنسي- أمازيغي- عربي) ، كاليفورنيا : د ت ، مؤسسة تاوالت الثقافية – سلسلة المعاجم 1 ، ص 23 .

http://www.tawalt.com/wp-content/books/tawalt_books/amawal_imudren/ animal_dictionary_2.pdf ، منشور بتاريخ 2013/04/26.

30.Michel Quitout, Grammaire berbère (rifain, tamazight, chleuh, kabyle), Paris : 1997, L'harmattan. P. 28.

31.Salem Chaker, Manuel de linguistique berbère– ll Syntaxe et diachronie, P .118.

32.Henri Basset, Essai sur la littérature des berbères, Paris : 2001, Ibis Press, P. 26.

33.محمد العربي عقون ، الأمازيغ عبر التاريخ، نظرة موجزة في الأصول و الهوية . ط1 . الرباط : 2010، التنوخي للطباعة و النشر و التوزيع ، ص ص 31-32.

34.محمد علي دبوز ، تاريخ المغرب العربي ، الجزء الأول ، كاليفورنيا : 2010 ، مؤسسة تاوالت الثقافية ، ص 366 .

35.المرجع نفسه ، ص 52 .

36.M Michel Quitout, Grammaire berbère (rifain ,tamazight,chleuh , kabyle) , P. 28.

37.Abdenour Abdesselam,Dictionnaire abrégé du vocabulaire Redressé de la langue berbère, Alger : 2001,ENAG / Editions . P. 5.

38.Mohand Akli Haddadou , Défense et illustration de la langue berbère , suivi de : Apport des berbères à la civilisation universelle , Alger : 2002 ,Edition INAS. PP. 31-32.

39.لويس جان كالفي ،علم الاجتماع اللغوي ، ص 30 .

40.Mohand Akli Haddadou , Défense et illustration de la langue berbère , suivi de : Apport des berbères à la civilisation universelle , P. 33.

41.Salem Chaker, Manuel de linguistique berbère– ll Syntaxe et diachronie, P .118.

42.Ibid., P .119.

43.Ibid., P .120.

44.Ibid., P .121.

45.Michel Quitout, Grammaire berbère (rifain ,tamazight,chleuh , kabyle).PP. 41-42.

46.Salem Chaker, Manuel de linguistique berbère– ll Syntaxe et diachronie, P .121.